

أسس عبد الملك مرتاض المنهجية بين القراءة الابداعية والنقدية

إبراهيم عبد النور
جامعة: بشار - الجزائر-

الملخص باللغة العربية :

قامت أسس عبد الملك مرتاض المنهجية على القراءة الابداعية والنقدية بكل أساليبها تحليلًا ودراسة وتفسيرًا وتفكيكا وسيميائية وقراءة للقراءة إنها القراءة المنهجية التي بفضلها استطاع الباحث الاطلاع على مختلف الشروحات للنصوص السردية والتفسير القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة وتحليلات الأشعار والمعلقات ذات الشأن الرفيع في الأدب العربي العريق. كل هذا يصنع بأسلوب مبدع جديد ، يلقي الرعاية ويكون جديراً بدراسة أخرى ثالثة ، قد تؤدي بنا إلى الكشف عن أكثر من وجه للنص المطروق. وهنا نتساءل: ما هي الأسس والمواقف والرؤى التي عمل على ضوئها عبد الملك مرتاض في تحليل الخطاب العربي؟ وأين خصوصية الباحث في تنظير قراءة الخطاب؟ هل ساهم في دفع الحركة الأدبية والنقدية في العالم؟ وهناك قضية عقدت الوعي النقدي وشعبت زواياه هي قضية تأصيل الخطاب وما مدى تمثله وتجسده في الفعل النقدي عند مرتاض؟

الملخص باللغة الإنجليزية :

A torgomhoss Abdel Malik Mortad methodology between the creative and critical reading

the foundations Abdel Malik Mortad methodology to read creative and cash in all methods of analysis and study of the autopsy and the dismantling and semiotic reading read it methodology reading thanks to which could researcher found on various explanations of the texts narrative interpretations of Qur'anic and Hadith and analyzes of poems and pendants of the high regard in ancient Arabic literature. All of this makes a new

iconic style, cast care and be worthy of further study a third, may lead us to detect more than the face of the text beaten. We wonder: What are the principles and attitudes and visions that work on light Abdul Malik Mortad in Arab discourse analysis? Where privacy researcher in endoscopy read the letter? Do you contributed to the payment of cash and literary movement in the world? There is the issue of awareness and cash held Hapt corners is the issue of rooting discourse and how it represents and embodies the critical reaction when Mortad?

الكلمات المفتاحية :

باللغة العربية : عبد الملك مرتاض، المنهجية، النقدية، الأسس، تحليل الخطاب.

باللغة الإنجليزية : Abdel Malik Mortad, methodology, cash, foundations, discourse analysis

إنّ كل خطاب نقدي يتأسس على لغة النقد الأدبي وما يتصل بها من أدوات ومفاهيم وإجراءات نقدية، بل إنّ الخطاب النقدي الذي نسعى إليه يصب في ساحة النقد العربي الحديث والمعاصر وقد توجهت أنظارنا إلى الخطاب النقدي عند « عبد الملك مرتاض » والذي يمثل مسعى نقدياً جديراً بالدراسة والبحث فيه، ولأنّ الباحث لم يترك جنساً أدبياً، فصيحاً أ وشعبيّاً، شعراً أ ونثراً، مثلاً أ وحكمة، نصّاً أدبياً أ ودينياً إلا وتناوله بالدراسة والتحليل والنقد، فهذا التنوع القرائي للناقد، وهذه الممارسة النقدية لهذه النصوص، أثارت جملة من من الأسئلة ظل الباحث يطرحها في كتبه ؟ والحديث عن الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض ما ه وإلا مسار في واقع الممارسة النقدية في الجزائر التي تلوّنت بحسب الظروف والعوامل والتي أحاطت بالنقد الجزائري، بل « إنّ المهتم بالحياة الأدبية، والثقافية في الجزائر منذ بداية القرن الحالي، لا يسعه إلا أن يؤكد نهضة الحركة الأدبية خلال العقود الأربعة الأولى منه، ويرجع السبب في نظرنا إلى ازدهار العوامل التالية :

- 1- اتصال أدباء الجزائر، ومثقفها بأعلام الأدب العربي في المشرق العربي، سواء بواسطة المجلات، والكتب، والجرائد، أ وعن طريق

الزيارات العلمية، والمناسبات الدينية، مثل موسم الحج .

- 2- ظهور الإمكانيات الإعلامية في الجزائر : مثل الجرائد، والمجلات وقد كانت جلها تعجّ بالمقالات السياسية، والدينية بالإضافة إلى القصائد الشعرية وبعض الفنون الأخرى مثل المقال الأدبي، والمناظرة، والمحاولات القصصية الأولى .

- 3- ظهور النوادي، والجمعيات الثقافية في معظم المدن الجزائرية الكبرى، ومن هذه النوادي التي ذاع صيتها في مختلف أقطار الوطن العربي نادي « الترقى » بمدينة الجزائر العاصمة.

- 4- تأسيس المدارس التعليمية، وعودة عناصر البعثات الدراسية إلى أرض الوطن، بعدما حصلوا على نصيب وافر من المعرفة الدينية وغيرها¹. لقد سعى الأدباء والنقاد الجزائريون إلى استخدام كافة الأدوات والوسائل من أجل بعث الخطاب الأدبي والنقدي في حُلّة تليق بمقامه وتجعله يواكب الحركة الأدبية والنقدية في المشرق

¹ شريط أحمد شريط ، مباحث في الأدب في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات إتحاد كتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2001، ص:6 .

العربي ، والمتتبع لهذا الخطاب النقدي
يجده قد مرّ بعدة مراحل وهي :

— «المرحلة الأولى 1900-1939م :

من أبرز الأقلام من الإعلامية، والثقافية، والأدبية التي اشتهرت خلال العقود الأربعة للقرن الحالي : محمد راسم، وعمر بن قدور، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد السعيد الزاهري، ومبارك الميلي، ومحمد بن العابد الجيلالي، ومحمد الهادي السنوسي الزاهري، وأب واليقضان وغيرهم. ويستخلص من الجهود التي بدّلتها هؤلاء الرواد وغيرهم، أنهم قرّبوا المعرفة الدينية والأدبية والسياسية، والتاريخية من القارئ في الجزائر. وجعلوه يسهم في إثرائها بالكتابة والمناقشة " ². إنَّ الخطاب النقدي الجزائري في هذه المرحلة استند على اللغة في طرح أحكامه النقدية، ولكن بصورة جزئية، وكأنيّ به يحاكي نظرة الجاهليين القدامى في أحكامه النقدية التي بُنيت على النقد الجزئي، أي الحكم على جودة الشاعر الجاهلي من خلال البيت الشعري وليس القصيدة،» ففي المرحلة الأولى التي تمتد من القرن الماضي حتى قيام الحرب العالمي الثانية، كانت النظرة إلى النقد الأدبي في الجزائر هي النظرة القديمة التي تهتم بالجزء دون الكل، فالنقد كان لغويا جزئيا صرفا

² _ المرجع نفسه، ص:5.

اتضحت فيه العناية باللغة، بمفرداتها وبتراكيبها.

اهتم النقاد أ وقل الأدباء - إذ لم يكن نقاد بالمعنى المعروف - اهتموا بالوزن والقافية، بالقواعد والتقاليد البلاغية المعروفة في الأدب العربي، حيث اهتم الأدباء بالمعاني الجزئية في القصيدة، لا بالقصيدة بوصفها كلا واحدا، وبوصفها وحدة متكاملة» ³. والمعروف أن النقد الجزائري كان يتسم في بدايته بالتقليدية في ممارسته لنقد النصوص، بل أضحت يهتم بالجزء على حساب الكل "... وحين جاء الاستقلال ظهر ما يمكن تسميته بالنقد الانطباعي التأثري، في بداية الأمر وه والذي يعبر فيه الناقد عن إحساسه الأول بما يقرأ فيعبر عن هذا في هذا مقال يكشف فيه عما أحسّه في هذا العمل الأدبي من أسلوب جميل أ وانطبع في ذهنه ووجدانه من شعور لذيد أ وغير لذيد أ وما أثار في نفسه من أفكار وآراء يوافق عليها أ ولا يوافق، وهذا النقد ما زال سائدا في بعض كتابات النقاد " ⁴. بيد وأن النقد الجزائري قد نهج طريق المناهج السياقية فاختر لنفسه النقد الانطباعي التأثري ليعكف على دراسة النصوص وغربلتها في

³ _ عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1833- 1974)، ، الدار العربية

للكتاب، ليبيا وتونس، (د ت)، ص241

⁴ _ عبد الله الركيبي ، المرجع نفسه، ص:255.

هذه الآونة وهكذا تشكل بحسب
بالأدوات النقدية التي كانت متاحة
ومتداولة آنذاك في تلك الفترة .

—المرحلة الثانية(1900 إلى 1956):

حيث أصيبت الحركة النقدية في
الجزائر بتعثر شديد خلال السنوات الأولى
لهذه المرحلة أي من هذا التعثر من عام
1900 إلى غاية 1947 م تقريبا. وقد
عرفت الحركة الأدبية في الجزائر انتعاشا
أديبا وثقافيا عميقا ما بين 1947 و1956،
وأهم الأسماء النقدية التي تواجدت أثناء
هذه المرحلة : أحمد رضا حوح وعبد المجيد
الشافعي، وعبد الوهاب بن منصور، وعبد
الرحمن شيبان وغيرهم. ويبدو أنّ إنتاج هذه
المرحلة النقدي لا يزال في معظمه موزعا في
الدوريات، والمجلات، والجرائد. أما المرحلة
الثالثة 1956م إلى 1972م: بدأت
الدراسات الجامعية بالحديث عن مناهج
الدراسات الأدبية، ويدل هذا على تطور
إدراك النقاد للتيارات والمدارس الأدبية،
وعلى نم ووعيهم بالأدوات التقنية التي
يدرسون بها النصوص الأدبية . ولعل ما
قدّمه الدكتور: أب والقاسم سعد الله في
كتابه « منهج بحثه (دراسة عن الشاعر
الجزائري محمد العيد آل خليفة)، وما
تناوله الناقد: عبد الله الركيبي في
دراسته عن القصة القصيرة، ليلاحظ مدى
تطور الوعي بالمنهج لدى الدكتور:
الركيبي، ويظهر أنّ تقنيات المنهج

التاريخي أكثر وضوحا وبروزا في دراسته
لأنّ المنهج التاريخي قد سيطر على جل
الدراسات الجامعية، والكتابات النقدية
عموما. المرحلة الرابعة (1972م-

1982) اتجهت الحركة النقدية في
الجزائر بسرعة نح ومنهج الواقعية،
واستفادت من منهج الواقعية الاشتراكية
ومن الكتابات النقدية لـ "لوسيان
غولدمان" و"جورج لوكاتش" و"غرامشي"
وغيرهم. وقد تجسدت أفكار هذا المنهج
في كتابات المبدعين الجزائريين أمثال :
الأعرج واسيني، وعمار بلحسن، ومحمد
سعيد، ومحمد الأمين الزاوي، ومحمد
ساري، ومحمد طيبي، وأزراج عمر،
ومصطفى صواق، ومخلوف عامر، ومحمد
بوشحيط، وزيتلي محمد، وإدريس بوديبة
وغيرهم⁵. اهتم النقد الجزائري بطروحات
تحليل الخطاب التي جسدت حقبة المناهج
النقدية الحداثية فراح يشتغل نقاده على
هذا الطرح الجديد فقاربوا به نصوصا
أضحت في مصاف القراءة العربية المعاصرة
لما حملته من فهم ووعي نقدي بالمناهج
النقدية الغربية ومحاولة تطويع هذه المناهج
الغربية على النص الأدبي، وهكذا كان
تحليل الخطاب في الجزائر يثير إشكالية
واقع الممارسة النقدية فيه، قبل الاستقلال

⁵ ينظر : مباحث في الأدب في الأدب الجزائري
المعاصر، شريط أحمد شريط ،ص:
9_11_13_14_16.

وبعده من خلال طرح قضية المنهج، حيث... كانت مناهج تحليل الخطاب الأدبي تعتبر إلى حد ما علما غريبا أفرزته حركة النقد الجديدة، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبدايات القرن العشرين، فإن هذه المناهج لم تأخذ مكانتها الحقيقية بين الدارسين العرب كمنهج أدبي وفني إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، من طرف مجموعة من النقاد العرب الذين استطاعوا فهم بلورة اتجاه نقدي أدبي عربي حديث له سماته وخصائصه، ومن بين أهم هذه الأسماء النقدية العربية التي حلقت عاليا في هذا الميدان اسم الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض الذي استطاع بحق بلورة منهج نقدي في تحليل الخطاب يغترف من أصوله الغربية ويتكأ على التراث العربي»⁶.

ظهر الخطاب النقدي الجزائري مع مجموعة من النقاد الجزائريين حاولوا الاهتمام بمسار النقد في الأدب، ولعل البوابة المنهجية الأولى التي فتح الخطاب النقدي الجزائري عينه عليها. ابتداء من مطلع الستينات من هذا القرن (...) وعلى وجه التحديد فإن سنة (1961) هي تاريخ

الميلاد الرسمي للنقد الجزائري حسب- يوسف وغليسي-، وهي السنة التي ظهر فيها كتاب أب والقاسم سعد الله عن الشاعر محمد العيد آل خليفة... تلته رسائل ودراسات أخرى لأقطاب هذا المنهج نج وعبد الله الركيبي وصالح خريفي ومحمد ناصر وعبد الملك مرتاض..⁷

ولقد ظهرت جهود الباحثين الجزائريين وكلهم ينتمون إلى جيل السبعينات منهم : الدكتور واسيني الأعرج، الأستاذ عبد الحميد بورايو، والأستاذ عمار بلحسن، والأستاذ حمادي عبد الله، والأستاذ محمد ساري، والدكتور بشير بويجرة محمد. ويضاف إلى هؤلاء بعض الباحثين الجامعيين الذي سعوا إلى تأسيس الخطاب النقدي الجديد في الجزائر، ومنهم : الدكتور فيدوح، ورشيد بن مالك، وأحمد يوسف، وإبراهيم رماني، والطاهر رواينية، وعلي ملاحي، وعبد الجليل مرتاض، وعبد الملك قجور، وغيرهم⁸.

— المرحلة الثالثة: (1956م إلى 1972م):

بدأت الدراسات الجامعية بالحديث عن مناهج الدراسات الأدبية، ويدل هذا على

⁶ — فيصل الأحمر، دراسات في الأدب الجزائري المعاصر، مقال: طارق ثابت، عبد الملك مرتاض وجهوده في التنظير لتحليل الخطاب الأدبي» المنهج السيميائي"، إتحاد كتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2009، ص: 7-8.

⁷ يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافة، الجزائر، 2002، ص: 22.

⁸ — مباحث في الأدب في الأدب الجزائري المعاصر، شريط أحمد شريط، ص: 18.

تطور إدراك النقاد للتيارات والمدارس الأدبية، وعلى نم ووعيهم بالأدوات التقنية التي يدرسون بها النصوص الأدبية. ولعل ما قدّمه الدكتور: أب والقاسم سعد الله في كتابه « منهج بحثه (دراسة عن الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة)، وما تناوله الناقد: عبد الله الركيبي في دراسته عن القصة القصيرة، ليلاحظ مدى تطور الوعي بالمنهج لدى الدكتور: الركيبي، ويظهر أنّ تقنيات المنهج التاريخي أكثر وضوحا وبروزا في دراسته لأنّ المنهج التاريخي قد سيطر على جل الدراسات الجامعية، والكتابات النقدية عموما. المرحلة الرابعة (1972م-

1982) اتجهت الحركة النقدية في الجزائر بسرعة نح ومنهج الواقعية، واستفادت من منهج الواقعية الاشتراكية ومن الكتابات النقدية ل" لوسيان غولدمان" و"جورج لوكاتش" و"غراميشي" وغيرهم. وقد تجسدت أفكار هذا المنهج في كتابات المبدعين الجزائريين أمثال : الأعرج واسيني، وعمار بلحسن، ومحمد سعدي، ومحمد الأمين الزاوي، ومحمد ساري، ومحمد طيبي، وأزراج عمر، ومصطفى صواق، ومخلوف عامر، ومحمد بوشحيط، وزيتلي محمد، وإدريس بوديبة وغيرهم⁹. اهتم النقد الجزائري بطروحات

تحليل الخطاب التي جسدت حقبة المناهج النقدية الحداثيّة فراح يشغل نقاده على هذا الطرح الجديد فقاربوا به نصوصا أضحت في مصاف القراءة العربية المعاصرة لما حملته من فهم ووعي نقدي بالمناهج النقدية الغربية ومحاولة تطويع هذه المناهج الغربية على النص الأدبي، وهكذا كان تحليل الخطاب في الجزائر يثير إشكالية واقع الممارسة النقدية فيه، قبل الاستقلال وبعده من خلال طرح قضية المنهج، حيث «...كانت مناهج تحليل الخطاب الأدبي تعتبر إلى حد ما علما غريبا أفرزته حركة النقد الجديدة، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبدايات القرن العشرين، فإن هذه المناهج لم تأخذ مكانتها الحقيقية بين الدارسين العرب كمنهج أدبي وفني إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، من طرف مجموعة من النقاد العرب الذين استطاعوا فهم بلورة اتجاه نقدي أدبي عربي حديث له سماته وخصائصه، ومن بين أهم هذه الأسماء النقدية العربية التي حلقت عاليا في هذا الميدان اسم الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض الذي استطاع بحق بلورة منهج نقدي في تحليل الخطاب يغترف من أصوله

المعاصر ، شريط أحمد شريط ، ص:

9_11_13_14_16.

⁹ _ ينظر : مباحث في الأدب في الأدب الجزائري

الغربية ويتكأ على التراث العربي»¹⁰.
ظهر الخطاب النقدي الجزائري مع مجموعة من النقاد الجزائريين حاولوا الاهتمام بمسار النقد في الأدب، ولعلّ البوابة المنهجية الأولى التي فتح الخطاب النقدي الجزائري عينه عليها. ابتداء من مطلع الستينات من هذا القرن (...) وعلى وجه التحديد فإن سنة (1961) هي تاريخ الميلاد الرسمي للنقد الجزائري حسب-

يوسف وغليسي-، وهي السنة التي ظهر فيها كتاب أب والقاسم سعد الله عن الشاعر محمد العيد آل خليفة... تلقتها رسائل ودراسات أخرى لأقطاب هذا المنهج نح وعبد الله الركيبي وصالح خريفي ومحمد ناصر وعبد الملك مرتاض..¹¹
ولقد ظهرت جهود الباحثين الجزائريين وكلهم ينتمون إلى جيل السبعينات منهم :
الدكتور واسيني الأعرج، الأستاذ عبد الحميد بورايو، والأستاذ عمار بلحسن، والأستاذ حمادي عبد الله، والأستاذ محمد ساري، والدكتور بشير بويجرة محمد.

¹⁰ _ فيصل الأحمر، دراسات في الأدب الجزائري المعاصر، مقال: طارق ثابت، عبد الملك مرتاض وجهوده في التنظير لتحليل الخطاب الأدبي» المنهج السيميائي"، اتحاد كتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2009، ص: 7-8.

¹¹ _ يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الأسنسية، إصدارات رابطة إبداع الثقافة، الجزائر، 2002، ص: 22.

ويضاف إلى هؤلاء بعض الباحثين الجامعيين الذي سعوا إلى تأسيس الخطاب النقدي الجديد في الجزائر، ومنهم :
الدكتور فيدوح، ورشيد بن مالك، وأحمد يوسف، وابراهيم رماني، والطاهر رواينية، وعلي ملاحي، وعبد الجليل مرتاض، وعبد الملك قجور، وغيرهم¹².

الدكتور " عبد الملك مرتاض

« شخصية طبعت الساحة الأدبية والنقدية بمؤلفاتها وفكرها ونقدها وكان لها حضور واع وبارز في مجال الرواية والقراءة والنقد تنظيراً وتطبيقاً، بل كان رائداً من رواد الخطاب النقدي العربي عامة والجزائري خاصة، ول وحاولنا استتطاق حياته لأعطينا محطات تبين سر اهتمام هذا المبدع بالإبداع الأدبي والنقدي ووتعلقه بتراثه ودينه.

ليس من شك في أن مشروع الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض في مجالات البحث والدراسة والتأليف العلمي والأدبي، لا يحتاج إلى تعريف وتشخيص بقدر ما يحتاج إلى إعمال نظر وتدبر، وتتبع وتأمل، ومساءلة، بغية تعميق الاستفادة منه، والاستئارة بإشراقاته المتعددة، إنه مشروع أصيل يعلن عن نفسه من خلال منجزاته المتراكمة بين سيرتيه الإبداعية والنقدية والممتدة على مدى ثلاثة عقود من الزمن،

¹² _ مباحث في الأدب في الأدب الجزائري المعاصر، شريط أحمد شريط، ص: 18.

فه ومشروع ضخيم يقنع القراء والمتابعين والمهتمين والمختصين على السواء بما لقي صاحبه فيه من عنت وجهد ومثابرة قل نظيرها، وتصحيحات وتطويرات ومعالم جديدة في تفكيره النقدي تقدم أبلغ الأدلة وأكثر الحجج مصداقية على تميز هذا المشروع وخصوبته وغناه وفراده صاحبه ومشروعيته العلمية بين الباحثين المعاصرين، لما يتميز به طرحه - وخاصة في مؤلفاته الأخيرة - التي اغتدت تعج بتلك النزعة النقدية التفاعلية الجديدة التي تزوج بين مكتسبات الإرث المعرفي العربي القديم ومعطيات المعرفة الغربية ذات التوجه الحداثي من تماسك فكري وفعالية علمية ودقة منهجية ووجاهة معرفية. إن مسارا نقديا بهذا الغنى والسعة والثراء، وبهذا الامتداد الزمني الشاسع وبهذا التعدد المعرفي الثري، الجامع بين أصالة التراث وعمقه وحدثة المعرفة الوافدة والمتطورة باستمرار - المستثمر لبعض ما تركه العلماء، والمستفد لبعض منجزات الحداثة الغربية، والمكيف لها مع الذوق العربي الأصيل، والطرح العربي الخالص، ظاهر من خلال حجم المراجع المتعددة المتعلقة بالتراث وبالحداثة، التي استند إليها عبد المالك مرتاض، في كتبه الابداعية والنقدية.

وتتمتع مؤلفات عبد الملك مرتاض بالتنوع، فهي تنتمي إلى أقاليم شتى

كالرواية والقصة والشعر والنقد والتاريخ والتراث الشعبي وهي مرتبة بحسب تواريخ صدورها: القصة في الأدب العربي القديم (1968)، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1983)، فن المقامات في الأدب العربي (1980)، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر (1981)، العامة الجزائرية وصلتها بالفصحى (1981)، الألغاز الشعبية الجزائرية (1982)، الأمثال الشعبية الجزائرية (1982)، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية (1983)، فنون النثر الأدبي بالجزائر (1983)، النص الأدبي : من أين ؟ وإلى أين ؟ (1983)، بنية الخطاب الشعري (1991)، في الأمثال الزراعية (1987)، ألف ليلة وليلة (1993)، الميثولوجيا عند العرب (1989)، ألف ليلة وليلة (1993)، عناصر التراث الشعبي في اللاز (1987)، القصة الجزائرية المعاصرة (1990)، (أ_ي) (1992)، الشيخ البشير الإبراهيمي (1993)، شعرية القصيدة : قصيدة القراءة (1994)، نظام الخطاب القرآني (1994)، تحليل الخطاب السردي 1995، مقامات السيوطي تحليل سيميائي 1996، قراءة النص 1997، في نظرية الرواية 1998، العشر المعلقات 2000،

الأدب الجزائري القديم، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، بالإضافة إلى عدة روايات منها : دماء ودموع، نار ونور، الخنازير، صوت الكهف، هشيم الزمن، حيزية، مرايا متشظية، حياة بلا معنى قلوب تبحث عن السعادة، مملكة العدم¹³ . كما شارك في ملتقيات أدبية ومهرجانات ثقافية وطنية ودولية، وقد نشر دراساته في أشهر المجلات العربية مثل : الثقافة الجزائرية، وفصول المصرية، المنهل والفيصل وقوافل وعلامات السعودية، كتابات معاصرة اللبنانية، الأقلام وآفاق عربية ، والتراث الشعبي العراقية، ، الموقف الأدبي السورية ومجلة تحليلت الحداثة بوهان¹⁴ . إن هذا التنوع والثراء في المؤلفات عند المبدع مرتاض لم ينشأ من عدم إنما كان ثمرة المطالعة والتأثر بفكر وأدب ونقد المبدعين العرب من جهة والغرب من جهة أخرى.

لعل الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض يطرح مسألة الوعي بالمنهج والاشتغال عليه، ولهذا نراه في معظم كتبه النقدية يبدأ بطرح الإشكاليات المنهجية» إذ لا يكاد يخل وكتاب من كتبه الغزيرة

¹³ — يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها، 2002، ص: 131_134 .

¹⁴ — ينظر : المرجع نفسه ص: 195.

بمقدمة شافية تستوفي الإشكالية المنهجية حقها من البسط والدرس»¹⁵ . فه ومن النقاد الجزائريين الذين اهتموا بالإبداع النقدي وبإشكالية المصطلح، كما أنه كان يرحل من منهج نقدي لآخر، ومنشغلا بالخطاب النقدي العربي المعاصر وما يتصل به من تطورات وتغيرات. لقد اهتم هذا الناقد بالخطاب النقدي وراح يستعين بكل ما يتصل بالمنهج النقدية من أدوات ووسائل تعينه على مقارنة النص الأدبي، حيث عمد إلى التظهير ليدخل ساحة التطبيق لهذه المناهج، حيث نظر للرواية والقراءة والكتابة ، وطبق مناهج نقدية تقليدية وحداثية و" وبقراءة فاحصة لحصيلة تجربة مرتاض مع المناهج الحداثية الجديدة، والتي أثمرت ما يزيد على عشرة كتب مطبوعة تراءى لنا أن نقسمها إلى مرحلتين :

_____ **مرحلة أولى (يمكن تسميتها بمرحلة « التأسيس والتجريب ») :** كان يتنازع خلالها جانبان : الرغبة في التأسيس لنموذج منهجي جديد (مع اختبار إمكاناته التطبيقية بروح جديدة) والحرص على عدم التفريط الكلي في الرواسب المنهجية التقليدية .

_____ **مرحلة ثانية (يمكن أن نطلق عليها مرحلة « التخطي والتجاوز ») :** وفيها

¹⁵ — يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض ، ص: 31.

بدأ يتخلص مما لم يستطع أن يتخلص منه فيما مضى، وتجاوز أخطاء المرحلة الأولى وأخذت صورة النموذج المنهجي الذي يدع إليه تزداد وضوحاً، وتتعرّز بألوان منهجية جديدة (السيميائية والتفكيكية) بعدما كان الهاجس المنهجي مقتصرًا على المزاوجة بين البنيوية والأسلوبية¹⁶. ولأنّ الباحث لا يؤمن بكمال المنهج فقد سعى إلى خاصية التركيب بين عدة مناهج حتى يحصل على قراءة أكثر انفتاحاً وعمقاً، ولكي تفرز من النص ألواناً من الحقائق والمعطيات، « لقد أعطى للمنهج إطاراً واسعاً حين وسمه بالحدّثة، وبذلك أتاح له أن يغترف من كل إنجازاتها المختلفة مستغلاً في ذلك كل تجريب سابق يمتح مادته من المعارف الجديدة. فلا حرج من التجول عبر المعارف، واستعارة الأدوات، وتغيير المفاهيم بما يتلاءم والمطلب النصوصي المعالج»¹⁷. وهذا يدل على تفرد الناقد من خلال تطويعه للمناهج النقدية الحدّاثية وخصوصية التطبيق الإجرائي لها. حيث « يلبس لكل زمان نقدي لبوسه المنهجي، فهُ وِمتطوّر وِمتجدّد باستمرار، ما يلبث على حال منهجية حتى ينتقل إلى حال

أخرى، وليس غريباً في - عرفه النقدي- أن يعتنق منهاجاً ثم يكفر به بحجة أنه أفلس ولم يعد يستجيب لتطور الأجناس الأدبية»¹⁸. الناقد دائم الترحال من منهج إلى آخر وهذا التحول يتعلق بخصوصية النص من جهة والتطور الذي تشهد الساحة النقدية والأدبية من تجدّد في المناهج النقدية. بيد وأنّ الناقد في بداياته مع النقد كان سياقياً من خلال استخدامه للمنهج الانطباعي والتاريخي حسب وِغليسي، سرعانما تحولت نظرته إلى المناهج النصّانية، إذ « تكمن القطيعة بين المناهج السياقية التقليدية ونظيراتها النصّانية، في أن هذه الأخيرة تقارب النص من داخله، ولا تعتد بالوسائط السياقية سبيلاً إل مقارنة، بل تسعى إلى تشريحه التماس بعض حقائقه، بوصفه بنية لغوية جمالية، مكتملة، ومجردة من سياقاتها التكوينية، فهي تنظر إليه على أنه بمثابة تحفة "جمالية مكتملة، ينتظمها نسيج من البنى والعلاقات المتينة»¹⁹. لعل الناقد مرتاض كان يعيش كل مرة مع منهج نقدي معين، وهذه المعاشة تعكس لنا المقاربات النقدية التي كانت تتنوع وتتلون مع كل مرحلة قرائية.

¹⁶ _ يوسف وِغليسي، المرجع السابق، ص: 49.

¹⁷ _ حبيب مونسي، فعل القراءة النشأة والتحول (مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة عبر أعمال عبد الملك مرتاض)، منشورات دار الغرب، وهران، (ط، 2001/2002، ص: 301.

¹⁸ _ يوسف وِغليسي الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص: 31.

¹⁹ _ يوسف وِغليسي، المرجع نفسه، ص: 46.

لقد قامت أسس مرتاض المنهجية على القراءة الابداعية والنقدية بكل أساليبها تحليلًا ودراسة وتشريحًا وتفكيكا وسيميائية وقراءة على القراءة، إنها القراءة المنهجية التي بفضلها استطاع الباحث الاطلاع على مختلف الشروحات للنصوص السردية والتفاسير القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وتحليلات الأشعار والمعلقات ذات الشأن الرفيع في الأدب العربي العريق. كل هذا يصنع بأسلوب مبدع جديد، يلقي الرعاية ويكون جديراً بدراسة أخرى ثالثة، قد تؤدي بنا إلى الكشف عن أكثر من وجه للنص المطروق. وهنا نتساءل: ما هي الأسس والمواقف والرؤى التي عمل على ضوئها عبد الملك مرتاض في تحليل الخطاب العربي؟ وأين خصوصية الباحث في تنظير قراءة الخطاب؟ هل ساهم في دفع الحركة الأدبية والنقدية في العالم؟ وهناك قضية عقدت الوعي النقدي وشعبت زواياه هي قضية تأصيل الخطاب وما مدى تمثله وتجسده في الفعل النقدي عند مرتاض؟ وخلال قراءتنا لهذه الموسوعة وجدنا أن :

— الناقد استثمر آراء ومؤلفات النقاد الحداثيين في استحداث خطاب نقدي خاص به، غير به المسار النقدي العربي والعالمي، وقد شاعت الظروف لهذه النهاية أن تكون على منابر أحدث الجامعات الأوروبية (جامعة السربون الفرنسية)، وفي

عقردار كبار النقاد الحداثيين في العالم (بارت وجينات، غريماس، تودوروف، كريستيفا، دريدا ...) فكانت المناسبة إرهاباً بأكبر تحوّل في مسار مرتاض النقدي، والمسار النقدي الجزائري بصورة عامة، حيث عاد الناقد مبعباً بأحدث المفاهيم والنظريات النقدية الغربية (ومعزاً بمناعة نقدية تراثية)، فجرّها - بُعيد ذلك - ثورة عارمة في الخطاب النقدي الجزائري، فكان مرتاض، بفعل ذلك، قميناً بريادة معركة المنهج في النقد الجزائري²⁰.

- وخطّ مرتاض لنفسه مساراً نقدياً بفضل كتبه النقدية التي أضافت للنقد الجزائري مكاناً، وجعلته يتقدّم ويتجدد بفعل الملاحظات والظروف التي كنت تحيط بالخطاب النقدي العربي عامة والجزائري خاصة. وإذا كان الخائضون في شؤون الخطاب النقدي المعاصر متفقين على أن (مرتاضاً) ه صاحب سبق والريادة في إدخال المناهج الجديدة إلى هذا الخطاب، فإنهم سرعان ما يختلفون حول أيّ من دراساته التي تمثل البداية التاريخية لذلك، ومن الغريب أن ينحصر الخلاف بين كتابه: (النص الأدبي: من أين؟ وإلى أين؟) ودراسته : (الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث) مع أنّه أوسع من هذا

²⁰ — يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض ،ص: 82 .

ومن تلك»²¹ .إنّ تحليل وغلبيسي لأسبقية الكتب على أخرى يستند في ذلك على الجانب التاريخي لنشأة الخطاب النقدي عند الناقد عبد الملك مرتاض"، حيث يتحدث وغلبيسي عن كتابي : الأمثال الشعبية الجزائرية والألغاز الشعبية الجزائرية معلاً ذلك :» ذلك بأنّ الكتابين المشار إليهما، وإن ظهرا في سنة واحدة (1982)، فإنّ مقدمة الأول منهما مؤرخة في (21_05_1980)، أما مقدمة ثانيهما فمؤرخة في (12 يولي و1979)، وهذا يكون كتاب (الألغاز الشعبية الجزائرية) فاتحة عهد مرتاض (ومعه الخطاب النقدي الجزائري عامة) بالمناهج الجديدة . وإذا ما أردنا أن نؤرخ لهذه المرحلة بمعيار تاريخ الصدور فإنّ المسألة - حينئذ - ستحسم لصالح (الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث) الذي صدرت في مجلة الآداب ببيروت سنة 1981. قبل أن يعاد نشرها في الجزائر سنة 1982، أما (النص الأدبي : من أين ؟ وإلى أين ؟ فقد صدر سنة 1983".²²

- وأسهم في إحياء التراث من خلال نفض الغبار عليه والاهتمام بدراسته ووتقديسه إن كان تراثاً دينياً وذلك من خلال تقديمه لقراءة نقدية لسورة الرحمن من منظور

حدائي مؤصّل في كتابه الموسوم ب "نظام الخطاب القرآني"، وإسهامه في نقل التراث العربي شعراً كان أم نثراً، فصيحاً كان أم شعبياً في صورة تليق به وتزينه وتحليه وتجمّله، وتسعى إلى دفع حركة التقدم والتجديد لهذا التراث العربي، وهكذا سار الناقد على خطى من سبقوه في الرد على كل تهجم يُحاك ضد تراثا العربي، وممن يحاولون طمس معالمه وتشويهه، والمساس بقيمه وأخلاقه ومعتقداته .

إن هذا التنوع في المؤلفات لدى الناقد عبد الملك مرتاض يدفعنا إلى التساؤل: أين نصنف المبدع مرتاض ؟ هل ه وروائي ؟ أم ناقد ؟ لعل هذا السؤال يحتاج منا إلى التمعن في مسيرته القرائية والتدبّر في مؤلفاته وأعماله، فمرتاض ناقد لأنّه سعى إلى التنظير والقراءة رغم أنه ألف عدة كتب في مجال السرد والقص.. والتي تم ذكرها سابقاً، فبحوث عبد الملك مرتاض ذات طابع نقدي منها ما سعى إلى نقد جنس الرواية فمثلاً قدّم قراءة نقدية لرواية زقاق المدق ولبعض حكايات ألف ليلة وليلة ضمن تحليل خطاب سردي لهما، ومن ما سعى في قراءات نقدية للتراث، وخير مثال على ذلك : قراءة الأمثال الشعبية الجزائرية والألغاز الشعبية الجزائرية، كما نهج لنفسه منهجاً متفرداً حين سعى إلى مسألة التنظير للقراءة والنقد والكتابة والبلاغة، وخاض غمار المصطلحات والمفاهيم

²¹ _ يوسف وغلبيسي، المرجع نفسه، ص48.

²² _ يوسف وغلبيسي، المرجع نفسه، ص48.

الحدثية كالشعرية والتناص والنص
...إلخ، ولعله بهذا يكون قد تربّع على
كرسي الخطاب النقدي الجزائري واحتل
الصدارة بمؤلفاته النقدية التي زاوجت بين
الرؤية التراثية والحدثية ضمن خطاب
نقدي عربي مؤصل .

— نهج ومنهجية حديثة للقراءة :

قامت أسس مرتاض المنهجية على
الإجراء السيميائي بكل أساليبه، وما دعا
إليه من خلال نظريته، هي تلك القراءة
المنهجية التي بفضلها استطاع القارئ
الاطلاع على مختلف الشروحات والتفسير
القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة
وتحليلات الأشعار والمعلقات ذات الشأن
الرفيع في الأدب العربي العريق. كل هذا
يصنع بأسلوب مبدع جديد، يلقي الرعاية
ويكون جديراً بدراسة أخرى ثالثة، قد
تؤدي بنا إلى الكشف عن أكثر من وجه
للنص المطروق.

انطلاقاً من هذا التصور المنهجي
المركب، نجده يتبنى كلمة (قراءة)
عوض كلمة (نقد) لأن هذه الأخيرة في رأيه
لا تغد وكونها مجرد قراءة شخص محترف
لنص أدبي ما. والأدوات التي يصطنعها في
فهم النص أ وتأويله، هي التي تحدد معالم
التحليل الذي ينشأ عن مسعاه الأدبي.

ولكي يعطي مرتاض لهذا التصور
المنهجي المتشابه مشروعيته العلمية،
ومصادقيته المعرفية، نراه يستند على بعض

الحجج التراثية التي تنفي الفضل الكامل
للمحدثين، في الاهتداء إلى إشكالية
القراءة السيميائية بكل منجزاتها اللسانية.
ويضرب أمثلة عن ذلك في قراءات أدبية،
تكاد تتدرج كما يقول اندراجاً تاماً في
حقل السيميائية، مثل شروح المرزوقي
لنصوص الحماسة، وشرح ابن سيده لأبيات
المتنبي.

أقام الأستاذ مرتاض نظريته على مستويات
خمس، فألفيناه يمتح من أساليب العرب
القدماء، كما اقترح مستويات أخرى
أكثر ثراء وعطاء في عملية قراءة النصوص
الأدبية هذه المستويات تمثلت في : المستوى
اللغوي، المستوى الحيزي، المستوى
التشاكلي، المستوى الإيقاعي والمستوى
الزمني.

"فالتشاكل" مثلاً مصطلح استحدثه
عبد الملك في كتاباته الأخيرة، ويهدف من
ورائه إلى رصد العلاقات المتقاربة أ
والمتشابهة بين معاني نص من النصوص، في
مقابل التباين الذي يرصد العلاقات
المتنافرة أ والمتعارضة، والتي تفضي فيم
بعد إلى تحديد الدلالات السيميائية
للمعنى، أثناء انصهاره في مساحة النص
المطروح للتحليل. والتباين في الأصل تناقض
من حيث المبدأ والغاية، إلا أنه يمكن قلب
التباين إلى تشاكل بفضل عملية قرائية
تأويلية، يسميها مرتاض الانتشار
والانحصار. وقد قلب في العلاقات التضادية

والتناقضية بين التباين والتشاكل حتى يتمكن من استخلاص وضعيات دلالية جديدة، يستغلها في توليد المعنى مما يتيح لعملية القراءة فرصة الانتشار

من هذا المنطلق، يرى عبد الملك "أن النص الأدبي عالم منفلق، ولكنه قابل للانفتاح، بيد أن مفتاحه لا نأخذه بأيدينا ونمضي لنفتح أبوابه ونستكنه أسرار، وإنما نبحث عن هذا المفتاح في ثناياه ذاتها".²³

ونجد من بين الذين طرحوا مسألة تعددية المعنى في النص، والتي تقوم القراءة السيميائية أساساً على كينونتها، بارت الذي يرى أن النتاج الأدبي إنما ه ولغة أدبية مكتوبة بشكل خارق. لكن فهم بارت لهذه العملية لا يعود إلى المميزات الفردية لكل أديب، وإنما لقدرة هذا الأديب على صنع الصورة الألسنية للعالم. وه وعندما يتحدث عن تعدد المعاني، إنما يقصد تعدد معاني اللغة ورمزيتها. فلهذا الأديب لغة ذات درجتين، تشمل الدلالات الجارية، والمعنى الإضافي الذي يغطي هذه الدلالات. فكل نتاج أدبي ه وتسائل عن الواقع، والجواب يجيبه كل واحد منا طارحاً فيه تاريخه الخاص، ولغته الخاصة، وحرية. إلا أن تاريخنا ولغتنا وإجابة العالم للأديب بلا

نهاية، لذلك فإن بارت في السيميائية ينفي الإجابة، ويكرس عبث السؤال.

كما استند مرتاض في معظم ما ذهب إليه في هذا الاتجاه، على جملة من المعايير أهمها:

– المعيار المعجمي : عملية نقف من خلالها على دلالة المصطلح وجذوره في المعاجم العربية والغربية، القديمة منها والحديثة على حد سواء.

– المعيار الاشتقاقي : باعتباره وسيلة فعالة من وسائل نم واللغة وتوالد موادها، وتناسل وتكاثر كلماتها، الأمر الذي يعطيها غنى وثراء يمكنها من التعبير عن المستحدث والجديد من أفكار ووسائل حياة.

– المعيار الفلولوجي : والذي من خلاله نستطيع تتبع مدى ملائمة وامتنال المصطلح لخصوصيات لغة ما، ومدى فصاحته، وخضوعه لطرائق الوضع اللغوي كما يثبتها درس فقه اللغة.

معيان الشيوع : ونعني به مدى شيوع المصطلح وهيمنته على الساحة النقدية، من حيث التداول والاستعمال.

– معيار الإحياء : ونعني به إحياء بعض المصطلحات التراثية النقدية القديمة، وإكسابها صيغة حديثة، لتغد وملائمة لبعض إجراءات التحديث المنهجي.

كان نفور مرتاض واضحاً من المنظور القرائي الأحادي وانغلاقه، والنزوع نح والتراكم المنهجي، والإيمان المطلق

عبد الملك مرتاض : النص لأدبي من أين ؟ وإلى أين ؟، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. طبعة 1983 م. ص 53. -²³

بعطائية النص وانفتاحه، والذي يتبناه بوعي عميق ويدافع عنه بحماس شديد. مؤكداً أن العرب من الأمم التي علمت بانفتاح النص وثرائه.

من هذا المنطلق، دعا مرتاض إلى استيفاء المنهج الواحد أ والنظرية النقدية الواحدة، لمجموعة من المستويات التي من شأنها أن تسلط الضوء على معظم جوانب النص الإبداعي، فتتيرزواياه، وتكشف درره، إذ ليس ثمة من نهاية حقيقية للتحليل الأدبي، وليس ثمة من وحدة خبيئة تبقى لتدرك بعد اكتمال عملية تحليل النص إلى مركباته العميقة إذ يمكن للخطوط المضمونية أن تقسم إلى أجزاء أصغر فأصغر، إلى ما لا نهاية. فكيف يمكن إذن لقراءة من مستوى واحد، أن ترقى إلى محاولة تفسير اللحظة أ والحالة التي تعكس فلسفة المبدع خلال النص ؟

إن التغير الدلالي في نظرية مرتاض النقدية، سيحيلنا حتماً إلى إدراك تعدد زوايا النظر للنص المبدع. فهذا الأخير يخلق من خيال مجنح، لا يستقر له حال ولا يقر له قرار. لذلك فإن قراءة واحدة من زاوية وحيدة ستوقعنا حتماً في التكرار والتقليد، فيحكم على القراءة آنذاك بالعقم، حيث يكتفي صاحبها باستهلاك الشكل المجسد للنص، دونما محاولة لاستيفاء محاسنه بهدف إنتاج نص آخر يطرح فيه

قضايا، ربما غفل صاحب النص الأول عن الإلمام بجوانبها.

من هنا، صار لزماً علينا أن نشير إلى أن عبد الملك مرتاض يساوي بين القراءة والكتابة التي تجسد هذا النص مرة أخرى. فه ويرى أن الكتابة الناتجة عن القراءة هي إبداع ثان، لأنها تعطي نفسها الحق في كتابة المسكوت عنه، والإحالة على المرجعيات والتنبه إلى مواطن الأفكار الجديدة. وهذا ليس على سبيل النقد وإنما على سبيل الإثراء والاستكمال، لذلك فه ويقول: "ما أجمل الكتابة عابثة وهادفة، وما أروعها صادقة وكاذبة، وما أسماها تقليدية وجديد"²⁴، من هذا المنطلق الواعي الذي يبتغي الكمال في مقارنة الأعمال الأدبية، ويهدف للولوج إلى أعماق النص الأدبي من خلال ملاسة جميع مستوياته الفنية، والقبض على معظم مركباته اللسانية، والإيديولوجية، والجمالية، والنفسية، نراه يدأب في تعامله مع النصوص على محاولة المزاوجة، أ والمثالثة، أ والمرابعة بين جملة من الأجناس باصطناع القراءة المركبة، التي لا تجتزئ بمنظور أحادي إلى النص، لأن هذا الأخير ومهما كان كاملاً دقيقاً،

²⁴ - عبد الملك مرتاض : الكتابة من موقع العدم : مساءلات حول نظرية الكتابة. دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 178

فلن يبلغ بالتحليل مداه ولن يظفر من النص بكل ما فيه.

وإنّا في هذا كله، لن نجد أحسن من موقعة مرتاض ضمن ذلك التوجه الحضاري الذي لا يتنكر للذات - ممثلاً في التراث - ولا ينفلق على ثقافة الآخر الوافدة، من خلال ذلك الحوار المنهجي الذي يقيمه بين القديم والجديد، من خلال التأطير النظري والممارسة التطبيقية، التي يقابل فيها بعض إشكالات التراث ومسائل الحداثة المنهجية كما استوعبها. مع اقتراحه لبعض المفاهيم الجديدة التي تكمل النقص من منظوره النقدي.

وهذا كله بغية صياغة نظرية نقدية تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتكون قادرة على زعزعة التفكير الأدبي السائد، وملامسة جل مستويات التحليل النصي، والإلمام بأوجه التأويل فيه، سواء في علاقته الداخلية بذاته كنظام لغوي رامز. أ وفي علاقته بمختلف الظواهر التي يؤثر ويتأثر بها (كالمجتمع والتاريخ والإيديولوجيا وظروف المؤلف...)، وربما من أجل ذلك نجده يميل في مقاربته النقدية، إلى التركيب المنهجي المفتوح والمنشعر عبر آفاق واسعة الدلالة، عوض القراءة المنغلقة المتوقفة ذات المنهج الواحد مزاجاً دوماً بين التراث البلاغي القديم، ومعطيات السيميوطيقا الحديثة، ومعمقاً الحوار النقدي المعرفي بين ما أنجزه الموروث النقدي

العربي القديم، وبين تلك التصورات والآليات الحديثة، التي يقدمها النسق المعرفي الغربي. فنجده يقول في هذا الصدد وضمن هذه المزاجية: "ومن أجل كل ذلك، وعلى الرغم من أن مسعانا في هذا النص يحاول أن يتموقع في إطار السيميائيات، فإننا مع ذلك لم نربأساً من التحلل من هذا التوقع، والانتشار خارج فضائه كلما رأينا ضرورة لإشباع النص بالتحليل".²⁵ ويبدد الباحث على وعي كبير بهذا النهج التركيبي الذي تصدر عنه قراءته، والذي يختلف في جوهره عن الإجراء التكاملي الذي يشيع في بعض الدراسات النقدية المعاصرة، فنراه ينوّه بخوفه من اتهامه بالتلفيقية فيقول: «على أننا لم نسقط في هذا إلا نادراً وبشيء كامل من الوعي»²⁶.

لعل هذه الاستراتيجية أ والمزاجية بين التأصيل المعرفي المنغرس بعمق، في تربة التراث، والتحديث المنهجي السابح بحرية في فضاءات الحداثة الغربية، والذي يتبدى بوضوح في تلك المقابلات العديدة التي يقيمها بين بعض منجزات التراث اللغوية، والبلاغية والنقدية، وبعض الطروحات

²⁵ . عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري (النص من حيث ه وحقل للقراءة).

علامات، ج 5، م 2. ربيع الأول 1413 هـ / سبتمبر 1992 م، ص 146

²⁶ . المرجع السابق. ص: 147

الغربية (الأسلوبية والسيمائية خصوصاً)، هي التي جعلته يمتح من معين التراث، فيم ه ولا يفتتن بصرعات الحداثة الغربية على اعتبار أنها الخلاص والمنتهى. ولذلك نراه يؤكد بجرأة وثقة بأن : « هذه الأدوات الجديدة التي تطلعننا بها كل يوم العلوم الإنسانية ليست غاية، وإنما هي مجرد وسيلة مطورة لرؤيتنا إلى النص، ومكملة للنقائص التي كانت تعتور مساعينا في التحليل، للاقترب بأعمالنا نح والكمال»²⁷ ، الأمر الذي يؤكد موقفه في عدم اتخاذ أي إجراء كأساس قار للمعالجة النقدية في النصوص الأدبية.

— التأسيس المنهجي وإشكالية توليد المصطلح :

إن المصطلح النقدي ه وضرب من ضروب التخصص في جانب معين من جوانب الحركة النقدية، والأدبية، بالإضافة إلى كونه مظهراً حضارياً من مظاهر تطور الفكر الأدبي والحس النقدي عموماً. وه وفضلاً عن ذلك عبارة عن دلالة خاصة تنتقل بموجبها اللفظة من معناها العام، إلى المعنى الخاص والمؤطر، مما يكسبها صفة التخصص مع وضوح المعنى، ودقة الدلالة وشمولية الاستيعاب .

إن الوعي المنهجي الأصيل والأفق المعرفي المنفتح، الذي واجه به الأستاذ مرتاض مشروعه في قراءة النصوص

الأدبية، من حيث منهجية المقاربة وتقنياتها وآلياتها، ه وصنوه الذي واجه به إشكالية السبك والضبط المصطلحي. ذلك أنه أدرك منذ الوهلة الأولى التي خاض فيها غمار القراءات السيميائية، أنه لا بد من التساؤل عن قابلية اندراج هذا المصطلح في حقل معرفي معين وخاص. أ وحتى إمكانية انتشاره خارج هذا الحقل، وملازمة حقول معرفية أخرى واسعة الدلالة، وه والأمر الذي يعطي للدراسات السيميائية مشروعيتها وفعاليتها.

لقد وظف عبد الملك مرتاض ويقصد التغلب على هذه الإشكالية وتجاوز عثراتها، مجمل ما حبلت به لغتنا العربية من آليات ومنايع اصطلاحية. كما استثمر أكبر قدر مما يمنحه الحقل الفيلولوجي العربي من إمكانات هائلة للتوليد المصطلحي، كالنحت والاشتقاق والتعريب والإحياء... بما في ذلك محاولاته الجاهدة لتذليل مشكلة السوابق واللواحق التي يفتقر إليها الحقل النقدي العربي، في مقابل اللغات الأوروبية باعتبارها لغات إصاقيه، تعتمد بطبعها نظام السوابق واللواحق في تشكيل وتركيب معظم كلماتها. كل هذه الإجراءات، راعى فيها مرتاض قوانين لغتنا العربية، واحترم قواعدها، في معظم الأحيان، وخرقها في أحيان قليلة لضرورة معرفية ودلالية

²⁷ . المرجع نفسه. ص: 146

بحث، كالنسبة إلى الجمع (موضوعاتية، لسانياتية، مستوياتية...) ²⁸. بالإضافة إلى اصطناع تقنية النحت كآلية لتوليد المصطلحات، من أمثلة ذلك : لفظ الجدلفة كمعنى للتجديد اللغوي، والبدعة من الفعلين : بدأ وعاد، والركبة من لفظتي ركب وعبر.

هذه المصطلحات نجدها متواترة بصفة خاصة في كتابه النص الأدبي من أين وإلى أين؟ الصادر عام 1983 عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر.

إن إصرار الباحث الكبير على التغلب على إشكالية توليد المصطلح وضبطه، وبالتالي تبيئته، جعله يصطنع على الصعيد الدلالي - وفي حدود منطلقات وآفاق قراءاته النقدية المزوجة بين التراث والحداثة - حقلين مصطلحيين أساسيين : أحدهما بلاغي والآخر ألسني حديث، فيما حفلت دراساته المتعددة في أحيان أخرى بطائفة مصطلحية ثالثة لا تكاد تدرج في أي إطار منهجي معين.

ولئن كان الأستاذ قد تعامل مع الحقل البلاغي تعاملًا حيادياً ظل فيه وفيًا لمرجعية المصطلحات التي يوظفها، أمينا

لدلالاتها كما عرفها القاموس النقدي العربي القديم، فإن هـ وفي المقابل اختلف في طريقة تعامله مع الحقل الألسني، بهدف التأصيل والتأسيس النقدي، إذ نلفيه يرتاب بين الوفاء للمرجع والحياد عن المدلول الأصلي والتوسع فيه وإسقاطه على المرجعية العربية التراثية .

كما كان يتردد في الآن نفسه بين حرصه على انتماء المفهوم المصطلحي إلى إطاره المنهجي، والحياد في أحيان أخرى عن هذا الحرص، من حيث نزوعه نح وتدعيم مصطلحات المناهج الألسنية المعاصرة (السيمائية والأسلوبية مثلاً) بوحدات مصطلحية بلاغية (كالنسيج والضرب وغيرها...).

نجد من بين المصطلحات المعتمدة في تخوم مؤلفات مرتاض النقدية، مصطلح الميتانقدية : على غرار لغة اللغة ونقصد بها : نقد النقد أ وتلك اللغة الناقدة للنقد، أ وبعبارة أخرى، وكما يصطنع الباحث لنفسه، القراءة وقراءة القراءة. والحق أن مرتاض كان من بين أكثر النقاد وعياً بأهمية المصطلح ومكانته داخل الخطاب النقدي، ومن أشدهم حرصاً على تأصيله وضبطه ومراجعته، سواء من حيث الحد أ ومن حيث المفهوم، قبل الخوض في غمار التطبيق والممارسة. ذلك أنه كان على وعي تام بأن لب المنهج ونواته هـ والمصطلح، وأن الفشل في ضبطه والتأسيس له هـ وفشل في

²⁸ - يراجع : إشكالية المنهج والمصطلح في تجربة (عبد الملك مرتاض) النقدية، مخطوط رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة قسنطينة سنة 1995، 1996 م. ص 312 وما بعدها يوسف وغليسي.

مواجهة الخطاب الأدبي ، وبالتالي الفشل في المسار النقدي ككل.

إن هذا الاهتمام البالغ بالمصطلح ومراجعته الدائمة والاجتهاد في تصحيحه وتطويره، جاء نتيجة الفوضى المصطلحية التي تعج بها الساحة النقدية العربية، نتيجة غياب تنسيق عربي موحد في هذا المجال، ولعل أبلغ مظاهر التأسيس والتأصيل النقدي في معظم قراءات مرتاض، سواء في المنهج أو في المصطلح، وتصدرها لمقدمات منهجية غاية في الدقة، توضح منذ الوهلة الأولى للمطلع عليها، تصويره العام للإشكالية المطروحة وتستوفيها حقها من التأطير والدرس والتمحيص، والضبط والتدقيق والتخصيب كلما رأى إلى ذلك ضرورة، كما نلني الكثير من المصطلحات التي ترجمها أوعربها في مرحلة سابقة مثل (الخطاب والإشارة، العلامة والأيقونة)، ثم عاد وتخلى عنها لحساب تسميات أخرى..

من بين ما اصطلحه مرتاض أيضاً، مفهوم التفكيكية، والتي كانت إفادته منها محدودة نسبياً، ولم تتجاوز بعض العموميات كالتعددية القرائية وانفتاح النص... بل لم تكن التفكيكية لديه إلا مجرد إجراء بنيوي لا يهمه أن يناهض الجوهر التفكيكي كما جاء في قراءات جاك ديريدا. يقول الأستاذ الدكتور مرتاض مشيراً إلى هذا الأمر: "... إن

اصطناعنا لمصطلح (التفكيك) لا ينبغي له أن يحيل بالضرورة على مفهوم المذهب الديردي، وإنما نريد به خصوصاً إلى حل الأجزاء والعناصر اللسانية (...) إلى أدنى مستوياتها لمحاولة البناء عليها (...) إذ لا يكون التحليل إلا بهدم أ وتقويض للنص في أي صورة من صور التقويض. ثم إقامة عمل فني جديد على أنقاضه" ²⁹

تبنى الأستاذ مرتاض في قراءاته الواعية، فكرة اللامنهج لأول مرة في حقل الدراسات النقدية. وقد شكلت سمته للعطاء النقدي على اعتبار أن العطائية ليست أسلوباً مغلقاً، ولا تتبع منهجاً معيناً وثابتاً. وكما تخضع للنص، فإنها تخضع لسلطة القارئ بتعدد مرجعياته الثقافية والاجتماعية "... لذلك فإن فكرة اللامنهج تركز مفهوم التعددية المنهجية التي لا ترى حرجاً في النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل، بعد التخمّة التي مُني بها النقد من جراء ابتلاعه للمذهب تل والمذهب، خصوصاً في هذا القرن." ³⁰

لقد كانت أسس مرتاض المنهجية في القراءة من المعالم الرئيسية لريادة مرتاض

²⁹ - عبد الملك مرتاض : القراءة وقراءة القراءة (فوضى في إشكالية المفهوم)، مجلة علامات، ج 15، م 4، مارس 1995 م. ص 201

³⁰ - يوسف وغليسي : الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، بحث في المنهج وإشكالياته، إصدارات رابطة إبداع الثقافية

الخطاب النقدي، الذين كلفوا بالمناهج الحداثية ورسخوا أصولها في الخطاب النقدي المعاصر بصورة عامة ، وقد تعددت روافد مرتاض النقدية من خلال مؤلفاته الحديثة، مما دفعه إلى التعامل مع المناهج الغربية بروح منفتحة، وبصيرة أصيلة، لا بروح آلية عمياء زكّتها رؤى متميزة في الساحة العربية من خلال كتبه "نظرية القراءة" .. نظرية الرواية .. الكتابة من موقع عدم ... وغيرها من المؤلفات .

ليس من شك في أن مشروع الأستاذ الدكتور عبد المالك مرتاض في مجالات البحث والدراسة والتأليف العلمي والأدبي، قد لا يحتاج إلى تعريف وتشخيص بقدر ما يحتاج إلى إعمال نظر وتدبر، وتتبع وتأمل، ومساءلة، بغية تعميق الاستفادة منه، والاستئناس بإشراقاته المتعددة.

إنه مشروع أصيل يعلن عن نفسه من خلال منجزاته المتراكمة والممتدة على مدى ثلاثة عقود من الزمن، ويقنع القراء والمتابعين والمهتمين والمختصين على السواء بما لقي صاحبه فيه من عنت وجهد ومثابرة قل نظيرها، وتصحيحات وتطويرات تقدم أبلغ الأدلة وأكثر الحجج مصداقية على تميز هذا المشروع، وخصوبته وغناه، وفراة صاحبه ومشروعيته العلمية بين الباحثين المعاصرين، لما يتميز به طرحه - وبخاصة في مؤلفاته الأخيرة التي اغتدت تعج بتلك النزعة النقدية التفاعلية التي تزواج بين

مكتسبات الإرث المعرفي العربي القديم ومعطيات المعرفة الغربية ذات التوجه الحداثي- من تماسك فكري وفعالية علمية ودقة منهجية ووجاهة معرفية.

إن مسارا نقديا بهذا الغنى والسعة والثراء، وبهذا الامتداد الزمني الشاسع، وبهذا التعدد المعرفي الثري، الجامع بين أصالة التراث وعمقه وحداثة المعرفة الوافدة والمتطورة باستمرار- المستثمر لبعض ما تركه العلماء، والمسترقد لبعض منجزات الحداثة الغربية، والمكيف لها مع الذوق العربي الأصيل، والطرح العربي الخالص، ظاهر من خلال حجم المراجع المتعددة المتعلقة بالتراث وبالحداثة، التي استند إليها عبد المالك مرتاض، في كتبه ومحاضراته .

مصادر البحث ومراجعته :

- 1 - حبيب مونسي، فعل القراءة النشأة والتحول (مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة عبر أعمال عبد الملك مرتاض)، منشورات دار الغرب، وهران، (د ط)، 2001/2002، .

10 - يوسف وغليسي الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، منشورات رابطة إبداع الجزائر، 2002 - يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها، 2002.

- 2 - شريط أحمد شريط ، مباحث في الأدب في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات إتحاد كتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2001.
- 3 - عبد الله الركيبي ، تطور النشر الجزائري الحديث (1833-1974)، ، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، (دت).
- 4 - عبد الملك مرتاض : التحليل السيميائي للخطاب الشعري (النص من حيث ه وحقل للقراءة). علامات، ج 5، م 2. ربيع الأول 1413 هـ / سبتمبر 1992 م،
- 5 - عبد الملك مرتاض : القراءة وقراءة القراءة (فوضى في إشكالية المفهوم)، مجلة علامات، ج 15، م 4، مارس 1995 م. ص201
- 6 - عبد الملك مرتاض : الكتابة من موقع العدم : مساءلات حول نظرية الكتابة. دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 178 .
- 7 - عبد الملك مرتاض : النص لأدبي من أين ؟ وإلى أين ؟، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. طبعة 1983 م
- 8 - فيصل الأحمر ،دراسات في الأدب الجزائري المعاصر ،مقال: طارق ثابت ،عبد المالك مرتاض وجهوده في التنظير لتحليل الخطاب الأدبي» المنهج السيميائي" ، إتحاد كتاب الجزائريين ،الجزائر، ط1، 2009، .
- 9 - يوسف وغليسي : إشكالية المنهج والمصطلح في تجربة (عبد الملك مرتاض) النقدية، مخطوط رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة قسنطينة سنة 1995، 1996 م. ص 312 وما بعدها .